

مدلول العبادة وصلته بالهداية

رجاء بنت محمد عودة (*)

الإنسان خليفة الله في أرضه، وهذه الخلافة تتمثل في إعمار الكون، والدعوة إلى الله، واتباع منهجه بالعبادة وفق ضوابطها الشرعية. وهذه الغاية لا تؤتي ثمارها اليانعة إلا بفقه مدلول العبادة لغة وشرعاً.

العبادة لغة وشرعاً:

ورد معنى العبادة في المعاجم اللغوية دالاً على: الطاعة، والخضوع، والتذلل، والتسك (١). أما معنى العبادة شرعاً فقد بسط القول فيه الإمام ابن تيمية وأبو الأعلى المودودي. يقول ابن تيمية: "العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة؛ فالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار، والمنافقين،

(*) أستاذ مساعد، بقسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة الملك سعود

(١) انظر: معجم الصحاح، القاموس المحيط، لسان العرب، مادة (عبد).

والإحسان للجار واليتيم، والمسكين، وابن السبيل... والدعاء والذكر، والقراءة وأمثال ذلك من العبادة"^(٢). ويقول في موضع آخر: "فكل ما أمر الله به عباده من الأسباب فهو عباده. والتوكل مقرون بالعبادة"^(٣). أما أبو الأعلى المودودي فقد بيّن في عرضه للمصطلحات الأربعة في القرآن الكريم الإله والرب والدين والعبادة، بأن العبادة تشمل جميع مناحي الحياة مع اقترانها بإخلاص النية، مستدلاً بالآيات الكريمة التي تتضمن هذه المعاني منتهياً إلى القول: "... فلا داعي لأن تُخص كلمة "العبادة" في هذه الآيات وما شاكلها بمعنى: التآله وحده، أو بمعنى العبدية والإطاعة فحسب، بل الحق أن القرآن في مثل هذه الآيات يعرض دعوته بأكملها. ومن الظاهر أنه ليست دعوة القرآن إلا أن تكون العبدية والإطاعة والتآله كل أولئك خالصاً لوجه الله تعالى. ومن ثمَّ إنَّ حصر معاني كلمة "العبادة" في معنى بعينه، في الحقيقة حصر لدعوة القرآن في معان ضيقة. ومن نتائج المحتومة أن من آمن بدين الله وهو يتصور دعوة القرآن هذا التصور الضيق المحدود، فإنه لن يتبع تعاليمه إلا اتباعاً ناقصاً محدوداً"^(٤). وهذا الإطار للعبادة يعطيها بُعداً شمولياً، يجسد معنى العبادة بمدلولها الخاص والعام.

(٢) الإمام ابن تيمية: العبودية، ط/٢ (بيروت: المكتب الإسلامي،

١٣٨٩هـ) ص/٣٨.

(٣) المصدر السابق، ص / ٧٣.

(٤) انظر : أبو الأعلى المودودي: المصطلحات الأربعة في

القرآن، (القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٧٥م) ص/ ٦٥.

العبادة بمدلولها الخاص:

وتشمل الفرائض، والأركان الشعائرية، وهي تعني: " - خاصة في الاستعمال الفقهي - أركان الدين الأربعة: الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج... وهناك ما يُبرر إطلاق لفظ العبادات ويُراد به تلك الأركان لأنها جامعة لكثير من أسرار العبادات مُحصلة لكثير من مقاصدها، محققة جُلِّ معانيها إن لم تكن جميعها..." (٥).

كما تشمل العبادة بمدلولها الخاص ما زاد عن الفرائض من ألوان التعبّد التطوعي من ذكر وتلاوة ودعاء واستغفار، كما تتضمن الفضائل الإنسانية من صدق الحديث وأداء الأمانة. والأخلاق الربانية من محبة الله وخشيته وإخلاص العبادة له، وسوى ذلك من أفعال القلوب (٦).

العبادة بمدلولها العام:

وتتمثل في كل حركة وكل نشاط يعمل به الإنسان في عمران الكون، وسدّ حاجاته وحاجات مجتمعه تبعاً لما رسمته حدود الله وضوابطه. وعلى هذا فكثير من الأعمال الدنيوية بما ينضوي فيها من تحقق الطموحات والرغبات البشرية على تعددها وتنوعها تندرج

(٥) د. رفعت فوزي؛ العبادات: أحكامها، وبيان أثارها في بناء

المجتمع الإسلامي، (كلية دار العلوم، جامعة القاهرة،

١٩٧٩م) ص/ ٨.

(٦) انظر: د. يوسف القرضاوي: العبادة في الإسلام، ط/ ٢

(بيروت: مؤسسة الرسالة، ٢٠٠١م) ص/ ٤٨.

بإخلاص النية في ميدان العبادة؛ فعلى سبيل المثال: بتربية الوالدين لأولادهم بنية التنشئة الصالحة، يندرج عملهم في ميدان العبادة. والجهد البحثي للعالم المتخصص لإفادة المجتمع الإسلامي بنتاج بحثه يُعدّ هذا الجهد عبادة. والموظف المؤدي لعمله متوخياً الحلال وحسن الأداء يُحسب عمله في مضمار العبادة.

والرجل الذي يمارس هوايته الرياضية، ويبتغي في ذلك القوة على طاعة الله يندرج عمله في حقل العبادة. والمرأة التي تزور جارتها لصلة الجوار مع ما فيها من متعة وتسلية عدت زيارتها عبادة. وليس هذا فحسب بل يندرج في واحة العبادة ما يكون من خصوصية العلاقة بين الزوجين كما يندرج فيها: "الحاجات الضرورية التي يؤديها المسلم بدافع الغريزة البشرية... وما كان من هذا القبيل يدخله الإسلام في دائرة العبادة الفسيحة بشرط واحد، هو "النية" فالنية هي المادة السحرية العجيبة التي تضاف إلى المباحات والعادات فتصنع منها طاعات وقربات" (٧).

ولو أردنا استقصاء الجم الغفير من الأعمال الدنيوية المنضوية في ثنايا العبادة لظال بنا المقام. ولعل فيما ذكرناه تنبيهًا وتشويقًا لمن يستثمر حياته كلها في مرضاة الله برصيد تصاعدي، دون أن يبذل مزيدًا من الجهد والعناء للعمل نفسه! مع بُعد الفارق بين ثواب العاملين في المقترن بالنية وبغير المقترن بها؛ فأجر العمل الدنيوي مقيدٌ أثره بالحياة الدنيوية، يترك صاحبه بمجرد تركه الدنيا، أما العمل الأخروي

(٧) د. يوسف القرضاوي: العبادة في الإسلام، ص ٦١.

فهو ممتد الأثر للحياة الأخروية يكفل لصاحبه ثواب الآخرة ونعيمها. ويأتي هذا التوظيف الأخرى للأعمال الدنيوية استجابة لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٨).

وهذا الإطار الشمولي للعبادة قد يطرح سؤالين؛ الأول: إذا كانت العبادة تشمل الدين كله فلماذا عطف القرآن عليها غيرها من الأوامر والنواهي، من مثل قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَيَالِ الْدِّينِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ....﴾ (٩). وقوله تعالى على لسان شعيب عليه السلام: ﴿... يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ وَلَا تَنفُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ...﴾ (١٠). والثاني: إذا كان الدين كله عبادة فلماذا قسم الفقهاء أحكام الشرع إلى: عبادات، ومعاملات؟

والجواب عن السؤال الأول مؤداه: أن العطف في اللغة يقتضي المغايرة، وعطف العام على الخاص من سنن العربية، وذلك للتنبيه على أهمية في الخاص اقتضت إفراده بالذكر، كأنه جنس مستقل، مع انضوائه في ثنایا العام. كما أن العكس مألوف، وهو عطف الخاص على العام، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ

(٨) الأنعام، الآية / ١٦٢.

(٩) النساء، الآية / ٣٦.

(١٠) هود، الآية / ٨٤.

والبغي...»^(١١)، فالقرآن الكريم حث على إيتاء ذي القربى مع أنه يندرج في ثنايا الإحسان. كذلك خص الفحشاء بالذكر مع دخولها في عموم المنكر، وكذلك البغي، وأمثلة هذا في القرآن كثيرة^(١٢).

أما الإجابة عن السؤال الثاني: فإن تقسيم الفقهاء للأحكام الشرعية العملية إلى عبادات ومعاملات كان بمقتضى تقسيم اصطلاحي؛ فهم أرادوا به التفريق بين نوعين من الأحكام؛ الأول: يشمل الصور والكيفيات المحددة التي شرعها الله، ليتقرب عباده إليه بأدائها. والثاني: يشمل الأحكام التي تنظم علاقات الناس بعضهم ببعض في شؤون حياتهم؛ فهذه العلاقات لم ينشئها الشرع، بل هي موجودة قبله، ولكنه عدلها وهذبها وأقر الصالح منها ونبذ الضار الفاسد^(١٣).

العبادة غاية الوجود الإنساني:

العبادة بمقتضى الرؤية الشمولية لها تشكل غاية الوجود الإنساني مصداقاً للخطاب القرآني: ﴿وما خلقت الجن والإانس إلا ليعبدون﴾^(١٤) ولو لم تكن حياة المسلم كلها عبادة لكانت أوقات العبادة المتعارف عليها لا تتال من حياة المسلم سوى جزء يسير من نشاطه اليومي؛ فمثلاً الصلاة بأوقاتها الخمسة لا تستغرق من وقت المسلم

(١١) النحل، الآية / ٩٠.

(١٢) انظر: العبادة في الإسلام، ص / ٦٧.

(١٣) المرجع السابق، ص / ٦٧.

(١٤) سورة الذاريات، الآية / ٥٦.

اليومي سوى ساعة ونصف تقريبًا. والصيام شهر في العام، والزكاة مرة في السنة، أما الحج فهو مرة في العمر لمن استطاع إليه سبيلاً. ومن منطلق هذا الحيز الزمني لأوقات العبادة - لو حُصرت في أداء الشعائر - تتداعى أهمية فقه صياغة الحياة وفق معنى شمولي للعبادة يكون فيه المسلم متعبداً لله سبحانه وتعالى في حياته الخاصة والعامة؛ فالزوج يتعبد الله في تعامله مع أسرته، والجار مع جاره، والتاجر في تجارته، والموظف في دائرته، والعامل في مصنعه، والأستاذ مع طلابه، والضابط مع جنده، والمزارع في حقله، إلى آخر ما يضمنه الهرم الاجتماعي من شرائح اجتماعية أيًا كانت توجهاتها ومواقعها. فإذا شعر المسلم أنه يخشى الله ويتقيه في كل ما يصدر عنه من أعمال دنيوية كتبت له بإخلاص النية عبادة، وكان مأجوراً عليها، كأجره على الشعائر التعبدية.

أثر العبادة في النفس الإنسانية:

للعبادة بمدلولها الشمولي كثير من الآثار الإيجابية في نفس المسلم؛ فهي تحقق ابتداءً عبودية المخلوق لخالقه، وغاية وجوده الإنساني، إلى جانب الارتقاء به من الدونية إلى مصافٍ علوية؛ لما هو معلوم من أن الإنسان خلق من طبيعة مزدوجة: قبضة من الطين، ونفخة من الروح؛ فقبضة الطين تهوي به للدرك الأدنى، ونفخة الروح ترتقي به إلى أفق علوي؛ فهي على هذا تركيبة للنفس، وشفاء للصدر، وسمو للروح.

وفضلاً عن ذلك فالعبادة تعد متطلباً فطرياً للنفس البشرية؛ فالمسلم محتاج لربه في ليله ونهاره ، في صحته ومرضه ، في سرائه وضرائه ، وفي كل حركة من حركات حياته: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(١٥) وقوله صلى الله عليه وسلم : "... احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك. رفعت الأقلام، وجفت الصحف"^(١٦).

والعبادة تمثل الحصن الذي يلجأ إليه المسلم؛ ولابد من اليقين الكامل بهذا الالتجاء، والحاجة إليه. كما أن المسلم بعبوديته لخالقه محكوم بإقامة هذه العبودية في نفسه، والإحساس بالارتقاء بها ارتقاءً يحقق القرب والتواصل مع ربه متى شاء، وأنى شاء؛ بل والإحساس باليون الشاسع بين العبودية للخالق، والعبودية للمخلوق.

وهذا الأثر النفسي للعبادة تردت أصداؤه نبضاً صادقاً، وبلسمًا شافيًا يسريان في كيان من استشعر حلاوتها من القدماء والمحدثين.

فهذا الإمام ابن تيمية يربط بخيط شعوري بين صلة العابد بالمعبود، مرتقياً لأجواء علوية سموًا واطمئنانًا وسعادة، يقول: "القلب

(١٥) فاطر، الآية / ١٥.

(١٦) الإمام الترمذي: سنن الترمذي، تحقيق: إبراهيم عطوة، ط/٢

(مصر: مطبعة مصطفى البابي الحلبي، ١٩٥٧م) ٤/٦٦٧.

فقير بالذات إلى الله من وجهين: من جهة العبادة، وهي العلة الغائية، ومن جهة الاستعانة والتوكل؛ وهي العلة الفاعلة. فالقلب لا يصلح، ولا يفلح، ولا ينعم، ولا يسر، ولا يلتذ، ولا يطيب، ولا يسكن، ولا يطمئن إلا بعبادة ربه، وحبه، والإنابة... إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه... فهو دائماً مفتقر إلى حقيقة: "إياك نعبد وإياك نستعين" (١٧).

والإمام ابن القيم يستشعر في العبادة عالماً فريداً من السعادة والتواصل والمحبة بين العبد وخالقه، يقول: "إنه لا شيء أحب إلى القلوب من خالقها وفاطرها فهو إلهها ومعبودها، ووليها ومولاه، وربها ومدبرها، ورازقها، ومميتها ومحيتها. فمحبتة نعيم النفوس، وحياة الأرواح، وسرور النفوس، وقوت القلوب... والحلاوة التي يجدها المؤمن في قلبه بذلك تفوق كل حلاوة، والنعيم الذي يحصل له بذلك أتم من كل نعيم" (١٨).

أما القاضي عياض فيرى في العبادة سمواً روحياً، وارتقاءً يوازي مجرات السماء، بل ويسمو عليها تيهًا وفخرًا قائلاً: (١٩)

ومما زادني شرفاً وتيهاً وكدتُ بأخصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي وأن صيرت أحمد لي نبيا

ويُجلى الرازي آفاق العبادة بارتقاء الإنسان إلى مدارج الكمال الإنساني يقول: "اعلم أن من عرف فوائد العبادة طاب له الاشتغال بها،

(١٧) ابن تيمية: العبودية، ص / ١٠٨.

(١٨) الإمام ابن قيم الجوزية: إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان،

تحقيق: محمد رشيد كيلاني (القاهرة: مكتبة البابي الحلبي،

د.ت. ١٩٤/٢.

(١٩) نقلاً عن رسالة: العبودية: ابن تيمية، ص / ٤.

وتقل عليه الاشتغال بغيرها، وبيانه من وجوه، الأول: أن الكمال محبوب بالذات وأكمل أحوال الإنسان، ... اشتغاله بعبادة الله، فإنه يستتير قلبه بنور الإلهية، ويتشرف لسانه بشرف الذكر والقراءة، وتتجمل أعضاؤه بجمال خدمة الله، وهذه الأحوال أشرف المراتب الإنسانية... فمن وقف على هذه الأحوال زال عنه ثقل الطاعات، وعظمت حلاوتها في قلبه. والثاني: أن العبادة أمانة بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ...﴾^(٢٠) وأداء الأمانة صفة من صفات الكمال محبوبة بالذات ولأن أداء الأمانة من أحد الجانبين سبب لأداء الأمانة من الجانب الثاني...^(٢١).

ويرى ولي الله الدهلوي أن العبادة تشكل ثنائية يتناغم فيها الميل الفطري للعبادة، وما تحققه من السعادة الروحية المؤدية لصلة سامية بين العبد وخالقه، قائلاً: "فاعلم أن في روح الإنسان لطيفة نورانية تميل بطبعها إلى الله عز وجل ميل الحديد إلى المغناطيس وهذا أمر مدرك بالوجدان، فكل من أمعن في الفحص عن لطائف نفسه، وعرف كل لطيفة بحيالها، لابد أن يدرك هذه اللطيفة النورانية، ويدرك ميلها بطبعها إلى الله تعالى، ويسمى ذلك الميل عند أهل الوجدان بالمحبة الذاتية"^(٢٢).

وينوه د. يوسف القرضاوي بأهمية العبادة وأنها تشكل جوهر إنسانية الإنسان، ومصدر سعادته وهنائه، يقول: "فالإنسان ليس هو هذا

(٢٠) الأحزاب، الآية ٧٢.

(٢١) الإمام فخر الدين الرازي: التفسير الكبير، (القاهرة: المطبعة

البيهية المصرية، ١٣٥٧هـ) ١/٢٩٤.

(٢٢) ولي الله الدهلوي: حجة الله البالغة (بيروت: دار المعرفة، د.

الغلاف المادي الذي نحسه ونراه... ولكن حقيقة الإنسان في ذلك الجوهر النفسي الذي صار به إنساناً مكرماً سيداً على ما فوق الأرض من كائنات، ذلك الجوهر هو الروح، الذي يجد حياته وزكاته في مناجاة الله عز وجل. وعبادة الله هي التي توفر لهذا الروح غذاء ونماء وتمده بمدد يومي لا ينفذ ولا يغيض...» (٢٣).

وهذه الأهمية للعبادة تشريعاً وتكويناً للنفس الإنسانية وإسعاداً لها، وسمواً بها، تقتضي بيان كيفية تحققها بأجلى صورها وتأثيراتها. وذلك لا يتأتى إلا بفقه ماهية العبادة التي ألمحنا إليها آنفاً، وهي شمولها للدين كله، وللحياة كلها، ولكيان المسلم ظاهره وباطنه. إلى جانب استقائها من منابعها الصافية، الصادرة عن الهداية الإلهية التي رسمت المنهج الأمثل للإنسان في المعاش والمعاد. فما هي هذه الهداية، وكيف تتحقق بضوابطها الشرعية؟!

الهداية لغة وشرعاً:

الهداية مشتقة من الهدى، وهي ضد الضلال، كما تأتي بمعنى الدلالة على الطاعة، وسلوك الجادة المستقيمة^(٢٤). ومصدر الهداية من الله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى﴾^(٢٥) «وَأِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ»^(٢٦) «قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى»^(٢٧) فالهادي من أسماء الله الحسنى الذي يُبصِّر عباده بمعرفته وبقائه، ونعمه وعطاءاته، وسننه في خلقه، وملكوته وأوامره،

(٢٣) د. يوسف القرضاوي: العبادة في الإسلام، ص ٩٢/ ٩٣.

(٢٤) لسان العرب، مادة (هدي).

(٢٥) الأنعام، الآية / ٧١.

(٢٦) البقرة، الآية / ١٤٣.

(٢٧) طه، الآية / ٥٠.

ونواهيته، وثوابه وعقابه، وسوى ذلك مما ورد في الهدى القرآنى، والتوجيه النبوى من تشريع، وفرائض، وأحكام.

وهذا المدلول للهداية قد يبدو واضحا لدى كثير من الناس. لكن

المتأمل المتعمق لواقع المسلمين يدرك أن هذا المدلول قد شابه شيء من الغموض واللبس، في فهمه وتطبيقه، حتى أحدث لدى بعضهم إشكالية عقديّة جعلها مسوغاً لتجاوزاته التعبدية. من ذلك أننا نرى بعض الناس يعلمون كثيراً من الحلال والحرام، لكنهم غير ملتزمين بضوابط هذا العلم في حياتهم، فمنهم على سبيل المثال من لا يؤدي الصلاة، ومنهم من يتهاون بالصيام، ومنهم من لا تلتزم بالحجاب، وسوى ذلك. وعندما يُوجه لهم النصح والإرشاد يحتجون بعدم الهداية مستشهدين بالآية الكريمة: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ...﴾ (٢٨).

وهذه الحجة لا مصداقية لها، لأن الهداية تتحقق عندما تتم المعرفة بما يريد الله من عباده والعمل بذلك، ثم يأتي التوفيق من الله سبحانه وتعالى؛ فإذا علم الإنسان ولم يعمل فإن الهداية غير كائنة حينئذ.

حقاً إننا لا نستطيع أن نفعل شيئاً إلا بعون الله تعالى لنا، لكن عون الله يكون على قدر اجتهادنا وصدقنا وطلب العون الدائم منه سبحانه؛ فالمسلم يظل على حال المجاهدة لنفسه بمقدار الاستطاعة

البشرية، كما قال تعالى: (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها... ﴿٢٩﴾)،
وبقدر ما يبذل من جهد في حدود هذه الاستطاعة تكون الهداية إلى
الصراف المستقيم.

أما الآية السالفة التي يستشهد بها الكثير لإضفاء المرجعية
الدينية على تجاوزاتهم التعبدية فهي لا تلغي مسؤولية المسلم وإرادته
في الاستجابة للتكاليف الشرعية التي حكمها الوجوب، يقول وهبة
الزحيلي في تفسير هذه الآية: "إنك أيها النبي لا تهدي بإرادتك من
أردت هدايته للإيمان، ولكن الله بقدرته وإرادته يهدي من يشاء هدايته،
فيوفقه للإيمان، وهو أعلم بالمستعدين للهداية. نزلت هذه الآية - كما
جاء في صحيح مسلم والترمذي وغيرهما - في أبي طالب لما امتنع
عن دين الإسلام مع شدة حرص النبي صلى الله عليه وسلم على
إيمانه، فمات على دين عبد المطلب" (٣٠).

وعلى هذا فأمر الله سبحانه وتعالى لعباده يقتضي الإذعان
والطاعة منهم، لأن "مقتضى عقد الإيمان أن يخرج الإنسان من
الخشوع لهواه إلى الخشوع لشرع مولاه، وفي هذا يقول الله تعالى:
(وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم
الخير من أمرهم، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلّالاً مبيناً)

(٢٩) البقرة، الآية / ٢٨٦.

(٣٠) د. وهبة الزحيلي: التفسير الموجز، الطبعة الثانية (دمشق:

دار الفكر، ١٤١٦هـ) ص / ٣٩٣.

(٣١)، وقوله سبحانه: (إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دَعَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُقْلِحُونَ) (٣٢)، فـلله وحده هو المشرّع الحاكم لخلقه، لأن الكون كله مملكته والناس جميعاً عباده، وهو وحده الذي له أن يأمر وينهي وأن يقول هذا حلال، وهذا حرام، بمقتضى ربوبيته وملكه وألوهيته للناس، فهو رب الناس، ملك الناس، إله الناس» (٣٣).

إن فمؤدى فهم الهداية وفق تلك النظرة الخاطئة لبعض الناس لا يؤدي إلى خلل في صحة المسار العقدي للمسلم فحسب، بل يؤدي إلى اضطراب في كيان المجتمع الإسلامي لا هتزاز ثوابته العقدية باستساغة فعل المعاصي وشيوعها، بل وإلباسها لباساً شرعياً، وهذا يستدعي توضيح مدلول الهداية تبعاً لمنظور الكتاب والسنة.

المدلول العام للهداية:

الهداية منهج سماوي لدلالة العباد إلى سُبُل الرشاد. وقد تفرعت وفق المشيئة الإلهية إلى محورين: هداية دلالة، وهداية معونة. ومع اتصال الهديتين ببعضهما اتصال الخاص بالعام إلا أن كل واحدة نهضت بخصويته مميزة في ميدان العبادة (٣٤).

(٣١) الأحزاب، الآية / ٣٦.

(٣٢) النور، الآية / ٥١.

(٣٣) د. القرضاوي: العبادة في الإسلام، ص / ٥١ - ٥٢.

(٣٤) انظر: محمد متولي الشعراوي: تفسير الشعراوي (القاهرة:

١ - هداية الدلالة:

هذه الهداية جاءت للبشر كافة؛ وهي التي أرسل الله بها الرسل مؤيدين بالمعجزات على صدق إخبارهم عنه سبحانه: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)^(٣٥). يقول صاحب صفوة التفاسير في تفسير هذه الآية: بأن الله سبحانه وتعالى أرسل كل رسول بلغة قومه "ليبين لهم شريعة الله، ويفهمهم مراده لتتم الغاية من الرسالة. فيضل الله من يشاء، ويهدي من يشاء؛ أي ليست وظيفة الرسل إلا التبليغ، وأما أمر الهداية والإيمان فذلك بيد الله سبحانه يضل من يشاء ويهدي من يشاء هدايته على ما سبق به قضاؤه المحكم، وهو العزيز في ملكه، الحكيم في صنعه"^(٣٦).

تبين هذه الآية الكريمة أن هداية الدلالة منطلقها من الله سبحانه وتعالى مجسدةً للمنهج الإلهي الذي أرسله الله لعباده على لسان رسله، وطالما أن هذه الرسالة السماوية موجهة للبشر كافة، فإن للإرادة البشرية فيها نصيب، تتمثل في الاستجابة والإذعان لأوامر الله واجتناب نواهيه، وهذه الاستجابة من العباد تلقى العون والتوفيق من الله للأخذ بأسبابها. قال تعالى: (فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ...) ^(٣٧).

(٣٥) الروم، الآية / ٣٠.

(٣٦) محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير (بيروت: دار القرآن

الكريم، ١٤٠١هـ) ٥٦/٦.

(٣٧) الأنعام، الآية / ١٢٥.

وهذه الهداية يبسط فيها القول سيد قطب مشيراً الى حقيقة دور الكينونة البشرية في تمثلها وتحققها قائلاً: إن تصور الحقيقة التي يقررها هذا النص وأمثاله في القرآن الكريم من النصوص التي تتعلق بالتعامل والارتباط بين مشيئة الله سبحانه، واتجاهات البشر، وما يصيبهم من الهدى والضلال... فالقرآن يصور الحقيقة الفعلية في الكينونة البشرية وفي الوجود الواقع؛ وهذه الحقيقة يتراءى فيها التشابك بين مشيئة الله وقدره، وبين إرادة الإنسان وعمله في محيط لا يدركه المنطق الذهني كله؛ فإذا قيل إن إرادة الله تدفع الإنسان دفعاً إلى الهدى أو الضلال لم تكن هذه هي الحقيقة الفعلية. وإذا قيل: إن إرادة الإنسان هي التي تقرر مصيره كله لم تكن هذه هي الحقيقة الفعلية كذلك! إن الحقيقة الفعلية تتألف من نسب دقيقة - وغيبية كذلك - بين طلاقة المشيئة الإلهية وسلطانها الفاعل، وبين اختيار العبد واتجاهه الإرادي، بلا تعارض بين هذه وتلك ولا تصادم^(٣٨).

عوامل تفعيل الهداية:

للمسلم دور حيوي في تدريب نفسه على التماس الهداية، وتفعيلها في حياته، لكونه العامل الرئيس المنوط به تحقيقها، وجني مكسباتها.

وينوه فتحي يكن عن أهم العوامل المؤدية لذلك مستلهماً الآية الكريمة: (وَيَزِدْ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى، وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ

(٣٨) سيد قطب: في ظلال القرآن، الطبعة الخامسة والعشرون

(القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٦م) ١٢٠٤/٢

عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا^(٣٩)، قائلا: "ترشدنا هذه الآية الكريمة إلى حقيقة مهمة قد نكون غافلين عنها؛ هي أن الهداية مبدؤها ومنطلقها الهدى، وأنه لا هداية من الله دونما هدى من النفس، وأنها - أي الهداية - تزيد وتنقص وتتقدم وتتراجع بحسب ما يرافقها ويتفاعل معها من عوامل القوة والضعف..."^(٤٠). ثم يدعم عوامل تفعيل الهداية بضرب الأمثلة الحياتية: "فكما أن تحقيق الربح المادي يحتاج إلى تجارة، وكما أن التجارة دربة ودراية وشطارة وتحتاج إلى إقدام ومغامرة، كذلك الربح الإيماني، والهدى الرباني فإنهما يحتاجان إلى خطوة أولى ومبادرة، وإلى رصيد يوضع في الحساب، وبعدها تتابع الخطوات، وتتلاحق المكتسبات، وتنمو الهداية بعون الله، وإلى ذلك جاءت إشارته تعالى: (وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى، وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا)^(٤١).

فمن طمع بالارتقاء أخذ بأسبابه، وأول أسبابه: الإرادة والتصميم، ثم المبادرة والمصابرة..."^(٤٢).

(٣٩) مريم، الآية / ٧٦.

(٤٠) د. فتحي يكن: مسيرة الهدى تبدأ بخطوة واحدة (الكويت:

مجلة المجتمع، العدد / ١٥١١ / ١٤٢٣هـ) ص / ٥٤.

(٤١) مريم ، الآية / ٧٦.

(٤٢) د. فتحي يكن: مسيرة الهدى تبدأ بخطوة واحدة، مجلة

المجتمع، ص / ٥٤.

وهذا العطاء السامي لهداية الدلالة يعكس الوجه الآخر لحال أولئك المعرضين عن هذا العطاء بمحض الاختيار، حيث يصورهم القرآن بأمثلة حية من واقع الأمم الغابرة: (وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْحَبُوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى، فَاخْتَلَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (٤٣).

إذن من يعرض عن هداية الدلالة يحل به العذاب والهوان، كما حلّ بتمود قوم صالح من العذاب والإهلاك والهوان، فكانوا صورة مخزية لمصارع الغابرين، وعبرة وموعظة لللاحقين. ولعل في هذه الصورة التقابلية الصارخة لرافض هداية الدلالة، والمستجيب لها ما يدعو للتساؤل: لم كانت هداية الدلالة اختيارية وليست قهرية؟! وهذا التساؤل يُجلى أبعاده محمد متولي الشعراوي مستنبطاً أسرار الحكمة الإلهية فيه قائلاً: "... فلو أراد الله أن يُخضعنا لمنهجه قهراً لا يستطيع أحد أن يشذ عن طاعته؛ وقد أعطانا الله الدليل على ذلك بأن في أجسادنا وفي أحداث الدنيا ما نحن مقهورون عليه... إذن فمنطقة الاختيار في الحياة هي المنهج أن أفعل أو لا أفعل. والله سبحانه وتعالى له من كل خلقه عبادة القهر، ولكنه يريد من الأنس والجن عبادة المحبوبة! ولذلك خلقنا ولنا اختيار في أن نأتيه أو لا نأتيه، في أن نطيعه أو نعصيه، في أن نؤمن به أو لا نؤمن به. فإذا كنت تحب الله فأنت تأتيه عن اختيار، تتنازل عما يغضبه حباً فيه، وتفعل ما يطلبه حباً فيه وليس قهراً، فإذا تخلّيت عن اختيارك إلى مرادات الله في منهجه تكون قد حققت عبادة المحبوبة لله تبارك وتعالى؟ (٤٤).

(٤٣) فصلت، الآية / ١٧.

(٤٤) محمد متولي الشعراوي. تفسير الشعراوي ٨٠/١

ويترأى لي وجه آخر من الحكمة الإلهية لحريّة التكليف - والله أعلم - هو الارتقاء بالعلاقة بين العبد والمعبود؛ فأنه جلّ شأنه يحترم رغبة عبده في تواصله مع خالقه، وحبّه لمناجاته! فحريّة الاختيار بمثابة إichاء للعباد بأن الله لا يريد من عباده رقاباً تخضع، بل قلوباً تخضع!! وتلك لعمرى أسمى درجات المحبة وأبقاها.

ومما يؤيد أن نتاج هداية الدلالة اختيارية يتحمل تبعاتها وجزاءها الإنسان، نطرح هذا السؤال: هل الأفعال من الله أم من العباد؟! العباد؟!

والإجابة نتلمسها من خلال معرفة ما هو الفعل؟ الفعل: هو توجيه طاقة لعمل ما؛ فإن كان الإنسان يريد التصديق يحرك يده للإحسان، وإن كان يريد السرقة يحرك يده للاختلاس؛ فهذه الحركة بأدواتها العضلية، ومقتضياتها (الفيسيولوجية) من الله سبحانه وتعالى؛ لأنه لو أراد تحريكها وهي مشلولة ما تمّ له ذلك! إذن توجيه الجارحة عضلياً من الله سبحانه وتعالى، لكن أمرها لفعل اختياري محدّد من المرء نفسه، سواء أكان هذا الفعل موجّه للخير، أم للشر.

وعلى ضوء ذلك فمن المستحسن بيان ما قد يغيب عن الأذهان بأن الأفعال الدنيوية بوقائعها الحيّة ليست منقطعة عن الحياة الأخروية، وما يواكبها من الحساب والجزاء، بل هي ممتدة الأثر؛ ففي الحياة الدنيوية تبدو في طلاقة القدرة الذاتية على الجوارح في الاستجابة لمنهج الله أو الإعراض عنه، لكن طلاقة هذه القدرة تصبح مقيدة في الحياة الأخروية، متحولة من الخضوع والإذعان إلى شاهد عيان، راصدة حركات صاحبها وسوء فعّاله! يوم أن كانت تأمر بأمره! لكنها اليوم انطلقت من عقّالها؛ من القدرة البشرية إلى القدرة الإلهية، ليتجلّى عدل الله في خلقه! فتشهد جوارح وأبعاض الإنسان على الإنسان، يوم يقف أمام الجبار جلّ جلاله وحيداً بلا سند، يتأمل سجل أعماله دون مدافعة منه! ولنتأمل الهدي القرآني واصفاً تداعيات هذا المشهد؛ يوم

يَخْتَم فِيهِ عَلَى الْأَفْوَاهِ، وَتُسْتَنْطَقُ الْجَوَارِحُ: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ وَقَالُوا لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَاِنْ يَصْبِرُوا قَالَتِ النَّارُ مَتَىٰ لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ (٤٥).

ومع مسيرة الهداية الإلهية تستوقفنا معطيات الهداية الأخرى:

هداية المعونة: ترددت هداية المعونة في التنزيل الحكيم بآيات عدة، مجسدة: الطاعة، وصدق الإيمان، وحسن المال، منها قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ (٤٦) ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا...﴾ (٤٧)، و﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ (٤٨).

ولدى تأمل سياق هذه الآيات المجسدة لهداية المعونة نجدها تمثل شجرة وارفة الظلال جذورها هداية الدلالة، وفروعها وثمارها هداية المعونة، أو بعبارة أخرى هي نتاج هداية الدلالة، والمكافأة الإلهية المجزية لها.

وقد أشار الشعراوي إلى ماهية هذه الهداية، رابطا بخيط إيماني بين الأصل والفرع، أو بين المقدمات والنتائج مستلهما الآية الكريمة

(٤٥) فصلت، الآيات من ١٩ - ٢٤.

(٤٦) الكهف، الآية / ١٣.

(٤٧) مريم، الآية / ٧٦.

(٤٨) محمد، الآية / ١٧، وردت هذه الآيات وسواها في صحيح البخاري (باب الإيمان) انظر: صحيح البخاري، (بيروت:

دار الفكر، ١٩٨١م) ٧/١.

(والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) قائلا: "وهذه هي دلالة المعونة، وهي لا تحقق إلا لمن آمن بالله، واتبع منهجه، وأقبل على هداية الدلالة وعمل بها. والله سبحانه وتعالى لا يعين من يرفض هداية الدلالة، بل يتركه يضل ويشقى" (٤٩).

ويعكس سيد قطب أبعاد هداية المعونة، وكونها شكلت الثمرة اليانعة لهداية الدلالة، ومدى الانسجام والتلاؤم بينهما، بما ينضوي في قانون الله وعلمه بأحوال عباده، ثم قدرة وفاعلية الإنسان وفق فطرته البشرية؛ مبينا أن الله سبحانه: "هو الذي فرض عليه تكاليف الدين، وهو يعلم - سبحانه - أنها داخلة في مقدور الإنسان العادي، لأن الدين لم يَجِئْ للقلائل الممتازين! وإن هي إلا العزيمة - عزيمة الفرد العادي - وإخلاص النية، والبدء في الطريق، وعندئذ يكون ما يعد الله به العاملين: ﴿...ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما ولهديناهم صراطا مستقيما﴾ (٥٠). فمجرد البدء يتبعه العون من الله، ويتبعه التثبيت على المضي في الطريق، ويتبعه الأجر العظيم، وتتبعه الهداية إلى الطريق المستقيم" (٥١).

ثمرات هداية المعونة:

أ- مرتبة المحبة: اقتضت سنة الله في خلقه أن يكون لكل عمل أجره المكافئ للجهد المبذول فيه، مصداقا لقانون الله في عطاءاته: "هل جزاء الإحسان إلا الإحسان" (٥٢)، فهداية الدلالة أفضت لهداية المعونة، وهداية المعونة آلت لعناية أخرى كانت مددا للمؤمنين تقويهم على

(٤٩) الشيخ الشعراوي: تفسير الشعراوي، ١/ ١٢٢.

(٥٠) النساء، الآية/ ٦٦.

(٥١) سيد قطب: في ظلال القرآن، ٢/ ٦٩٨.

(٥٢) الرحمن ، الآية/ ٦٠.

الطاعة، وفعل الخير، والتغلب على نوازع الهوى والكسل، وتحفزهم على الاجتهاد في العبادة لا بتأدية الفرائض فحسب بل بأداء النوافل بشغف ومحبة، فكانت طاعة الله شغلهم الشاغل، وهدفهم الأسمى، فارتقوا بتلك الصلة إلى مرتبة خاصة. "وقد وصف الله تعالى علاقة المؤمنين بربهم مبينا عنصر الحب القائم بينهم: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ (٥٣) فقالوا بذلك مرتبة "المحبة" (٥٤) تلك المحبة التي وصف حيثيتها الحديث القدسي: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه. وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه..." (٥٥).

ب- مرتبة التقوى: ومع مسيرتنا في ميدان الترقى في عطاءات الهداية الربانية نجد هذه العطاءات تتدافع سموا وثراء وفوزاً؛ فالنفس التي استعذبت القرب من الله تطمح إلى المزيد من المراتب، ولا غرو في هذا! فالنجاح يغري بالنجاح، والتفوق يغري بالتميز؛ فعندما حازت النفس المؤمنة مرتبة "المحبة" تعززت همتها شأواً، وهدفها سمواً، فازداد الاجتهاد بالعبادة، والإخلاص والخضوع، والتقرب منه، حتى ارتقت إلى مرتبة "التقوى" والتقوى: "منقبة عظيمة، ... وهي تعني كما توحى نصوص الكتاب والسنة، ثم فهم أئمة الهدى والسلوك العملي للسلف الصالح في ظلها: الاستقامة على طاعة الله ورسوله - صلى

(٥٣) البقرة، الآية / ١٦٥.

(٥٤) د. إسماعيل سالم عبد العال (القاهرة: دار الهداية،

١٤٠٦هـ) ص / ١٨.

(٥٥) الإمام البخاري: صحيح البخاري، ٧/ ١٩٠.

الله عليه وسلم - بإخلاص ومحبة، وصدق وخشية لله بالغيب،... كما تعني حرصاً على كل ما فيه قربة إلى الله تصل بالمؤمن إلى حسن العاقبة يوم الدين...^(٥٦).

وبما أن التقوى هي نتاج صدق أعمال القلب واستقامة فعل الجوارح فقد ارتقت بأهلها وأقية لهم من عذاب الله وعقابه، يقول محمد أديب الصالح: "ولا تسئل عن الموقع العظيم لمحبة الله ورسوله في قلوب المتقين، وبذلك يكون المؤمن قد وضع - بفضل الله وعونه - بينه وبين عذاب الله يوم القيامة وغضبه وعقابه، وبين المعصية والمخالفة قبل ذلك وقاية من العمل الصالح المرضي لله - عز وجل - الذي يجمع صدق أعمال القلب إلى استقامة أعمال الجوارح... لأن التقوى مطلوبة في كل جزئية وكلية، وانحسارها عن حياة المسلم مؤذن بالخراب والدمار في الدنيا والآخرة"^(٥٧).

وهكذا تتوالى مراتب الارتقاء في واحة الهداية الإلهية إلى أن يصل المرتقون إلى قمة المراتب: مرتبة الإحسان.

ج- مرتبة الإحسان: وهي مرتبة معارج السعداء إلى نعيم الجنان. وهذه المنزلة لا ينالها إلا أولو العزم أصحاب النفوس الكبيرة. ولقد علمتنا عدالة السنن الإلهية في الكون أن الشيء النفيس لا يدرك إلا بجهد كبير، وكلما كانت نفاسته أكبر كان الجهد أظهر! وهذه

(٥٦) د. محمد أديب الصالح: التقوى في هدي الكتاب والسنة،

(دمشق: دار القلم، ١٤١٦هـ) ١/١٥.

(٥٧) د. محمد أديب الصالح: التقوى، ١٥/١ - ١٧.

المنزلة السامية جعلها ابن القيم في كتابه مدارج السالكين، محصلة منازل "إياك نعبد وإياك نستعين" قائلا: "وهي لب الإيمان وروحه وكماله. وهذه المنزلة تجمع جميع المنازل فجميعها منطوية فيها"^(٥٨)، ثم يقول: "وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قرأ: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾"^(٥٩) ثم قال: "هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم! قال يقول: هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة، وأما الحديث: فأشارة إلى كمال الحضور مع الله عز وجل، ومراقبته الجامعة لخشيته، ومحبه ومعرفته، والإنابة إليه، والإخلاص له، ولجميع مقامات الإيمان"^(٦٠).

وهكذا تجلت نعم الله، وغيوث عطائه على عباده المتقين، انطلاقاً من الاستجابة لهداية الدلالة وفق ضوابطها الشرعية، ففازوا بهداية المعونة بمراتبها الارتقائية: المحبة، التقوى، الإحسان، فنالوا السعادة الأبدية بلزومهم الواحة الوارفة الظلال، واحة العبودية

(٥٨) ابن قيم الجوزية؛ مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك

نستعين، ط/٤ (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٤١٧هـ)

.٤٢٩/٢

(٥٩) الرحمن، الآية /٦٠.

(٦٠) المصدر السابق، ٤٣٠/٢.

الخاتمة

ولعلنا بعد هذا العرض الموجز لمفهوم العبادة وصلته بالهداية قد أسهمنا في جلاء تلك الظلال الضبابية التي لابتست مفهوم الهداية بأنها مقيدة فحسب بالمشيئة الإلهية، يمنحها الله لمن يشاء، ويحجبها عمن يشاء، مما هيا لهم التنصل من الالتزامات التعبدية بما حسبه مسوغات شرعية! ومرد هذا اللبس عدم تعمقهم للدور الوظيفي للهاديتين؛ فعكسوا فيهما المنطلق والنتيجة؛ فظنوا أن هداية المعونة والتوفيق الخاصة بالمؤمنين المستجيبين للهداية الدلالة هي هداية مطلقة تأتي للعامة من الناس، دون الخاصة. وقد واكب هذا الفهم قصور في السعي للأخذ بمعطياتها لتأكيد القناعات الإيمانية من جهة، ولتفعيل الهداية من جهة أخرى؛ فهم لم ينكروا الهداية، ولكنهم لم يسعوا إليها^(٦١)، ولم يعمقوا الوفاق بين الإنسان المسلم، والوعي الديني الذي يتحرك فيه، فعطلوا التكليف الشرعية انتظارا وترقبا لوصول الهداية! ولما كان أي بناء حضاري إنساني مفقرا في جوهره إلى منهج يقوده نحو غاياته ومقاصده بخطوات منظمة وسليمة، فكان لابد للهداية لتنفذ إلى قلوب أصحابها، وتحقق غاياتها من خطوات حثيثة توصلد دروب المعصية، وتستجيب للمنهج الإلهي في أحكامه وتشريعاته، فتحيله إلى برنامج عملي منظم، قوامه: ﴿وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾^(٦٢).

ووفق هذه المعطيات والنتائج يكون من الميسور لكافة العباد ولوج واحة الهداية الإلهية بالأخذ بأسبابها متى شاؤوا، وأنى شاؤوا! فمتى أناخوا مطاياهم بباب الرحيم التواب فلن يردهم عن جنبه! فتستقيم حياتهم بنور الهداية، ولا غرو في هذا... فالهداية منهج سماوي يضيء مسالك الحياة الفاضلة للعباد لتتنظم حركة الحياة بمنهج السماء.

وختاماً: ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(٦١) انظر عوامل تفعيل هداية الدلالة ، ص ١٥ من المطبوع.

(٦٢) البقرة، الآية / ٢٨٥.

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

البخاري، الإمام محمد بن إسماعيل

"صحيح البخاري"

دار الفكر، بيروت، ١٩٨١م.

الترمذي، الإمام محمد بن عيسى:

"سنن الترمذي"

تحقيق: إبراهيم عطوة، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة،

١٩٥٧م.

ابن تيمية، الإمام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم:

"العبودية"

ط/٢، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٣٨٩هـ.

ابن قيم الجوزية، الإمام محمد بن أبي بكر:

"إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان"

تحقيق: محمد رشيد كيلاي، مكتبة البابي الحلبي،

القاهرة، د. ت.

"مدارج السالكين"

تحقيق وتعليق: محمد المعتصم بالله البغدادي، ط/٤، دار

الكتاب العربي، بيروت، ١٤١٧هـ.

الدهلوي، الإمام ولي الله:

"حجة الله البالغة"

دار المعرفة، بيروت، د. ت.

الرازي، الإمام فخر الدين محمد بن عمر:

"التفسير الكبير"

المطبعة البهية المصرية، القاهرة، ١٣٥٧هـ.

الرازي، محمد بن أبي بكر:

"مختار الصحاح"

مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٦م.

الزحيلي، وهبة:

"التفسير الموجز"

ط/٢، دار الفكر، دمشق، ١٤١٦هـ.

الشعراوي، محمد متولي:

"تفسير الشعراوي"

مطابع أخبار اليوم، القاهرة، د. ت.

الصابوني، محمد علي:

"صفوة التفاسير"

دار القرآن الكريم، بيروت، ١٤٠١هـ.

الصالح، محمد أديب:

"التقوى في هدي الكتاب والسنة"

دار القلم، دمشق، ١٤١٦هـ.

عبد الباقي، محمد فؤاد:

"المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم"

دار مطابع الشعب، القاهرة، د. ت.

عبد العال، إسماعيل سالم:

"فقه العبادات الإسلامية"

دار الهداية، القاهرة، ١٤٠٦هـ.

فوزي ، رفعت :

"العبادات أحكامها وبيان آثارها في بناء المجتمع
الإسلامي"

كلية دار العلوم، جامعة القاهرة، ١٩٧٩م.

الفيروزآباري، مجد الدين بن يعقوب:

"القاموس المحيط"

ط/٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٧هـ.

القرضاوي، يوسف:

"العبادة في الإسلام"

ط/٢، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢١هـ.

قطب ، أ. سيد:

"في ظلال القرآن"

ط/٢٥، دار الشروق، بيروت، ١٤١٧هـ.

ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم:

"لسان العرب"

دار المعارف، القاهرة، د. ت.

المودودي: أبو الأعلى:

"المصطلحات الأربعة في القرآن:"

القاهرة: دار الكتب المصرية، ١٩٧٥م.

يكن، د. فتحي:

"مسيرة الهدى تبدأ بخطوة"

مجلة المجتمع، الكويت، العدد ١١١٥، ١٤٢٣هـ.

فهرس الآيات القرآنية

رقم الآية	السورة	الآية
١٦٢	الأنعام	قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
٣٦	النساء	وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا
٨٤	هود	يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَتَّبِعُوا
٩٠	النحل	الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ
٥٦	الذاريات	وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ
١٥	فاطر	يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ
٧٢	الأحزاب	الْحَمِيدُ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
٧١	الأنعام	وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا
١٤٣	البقرة	الْبَإِنْسَانُ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ وَأَمْرُنَا لِنُסَلِّمَ لِرَبِّ
٥٠	طه	الْعَالَمِينَ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ
٥٦	القصص	قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ
٢٨٦	البقرة	إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ
٣٦	الأحزاب	لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا... وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ
		أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ
		وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا

الآية	السورة	رقم الآية
إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ	النور	٥١
وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ	إبراهيم	٤
فَمَنْ يَرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيهِ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ...	الأنعام	١٢٥
وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًا	مريم	٧٦
وَأَمَّا تُمُودَ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْحَبُوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ، فَأَخَذَتْهُمُ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهَوْنِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ	فصلت	١٧
وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاؤُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ	فصلت	٢٤-١٩
وَقَالُوا لَجُلُودُهُمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ		
وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ		
أَرَدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ		

مثنوى لهم وإن يستعقبوا فما هم من المعتبين

١٣ الكهف

إنهم فتية آمنوا بربهم وزدناهم هدى

٧٦ مريم

ويزيد الله الذين اهتدوا هدى والباقيات الصالحات

خير عند ربك ثوابا وخير مردا

١٧ محمد

والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم

٦٨-٦٦ النساء

ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد

تثبيتا وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما ولهديناهم

صراطا مستقيما

٦٠ الرحمن

هل جزاء الإحسان إلا الإحسان

١٦٥ البقرة

والذين آمنوا أشد حبا لله

٢٨٥ البقرة

وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير

فهرس الأحاديث الشريفة

الحديث الشريف

الصفحة

احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك.....

٨

من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب ٢٢
مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ...

فهرس الشعر

البيت . الشاعر الصفحة

ومما زادني شرقاً ونَيْهاً	القاضي	
وكدتُ بأخصمي أطأ	عياض	٩
الثريا		
دخولي تحت قولك يا عبادي		
وأن صيرت أحمد لي نبيا		

